

# تجربتي الأدبية

بقلم توفيق يوسف حواري

فاستوففه وصول المحمل بالوكلين به الى قنطرة ، وامرأة بلا حراك في زاوية القنطرة في اسمال لها يسرح عليها القمل وعلى صدرها طفل عالق بشديها الميت . يتقدم احد الرجلين ويرفس المرأة بقدمه : - شبعنا موتا ! والطفل ؟ - سيموت ان لم يكن اليوم فغدا . - هاته ، قال الآخر . وقذفاه فوق امه على المحمل . وحانت منهما التفاتة الى طام فاطلق ساقيه للريح وهو يصيح : - انا مات ! انا مات !

كان ذلك في خريف ١٩١٨ . كنت في السابعة من العمر . في نعومة اظفاري لست اشك الان ان شيئا قد نبت في فجأة في تلك اللحظة الرهيبة . اظافر اخرى طفرت في روعي قاسية ، محددة هي الاظافر الزرق التي امسكت بها فيما بعد بالقلم وشرعت بالكتابة . اما القلم فكيف انسى لقائي له وما كان بيننا من مكائد ؟ واحدة لا تزال تحفر في قلبي . كانت المدرسة التي فتحت عندنا بعدالحرب قد انتقلت من تحت سنديانة مار يوسف بحرصاف الى قبو سيدي العونات في ساقية المسك . وذات صباح دخل الصبي - كان قد بلغ اعاشرة - وما كاد يستقر على بنكه حتى يستوى بونا انظسون بجلال كرشه على المنبر ويفتح دفترنا كان يلقنا منه علوم الدنيا والاخرة ويتؤدة واناقة لا عهد لنا بهما يمد يده الى عب قبائه ، وكالساحر يطلع منه شيئا عجبا : قزما له طربوش بشرابة من ذهب ، وقامة في وسطها حزام من ذهب ، ثم اذا هو يتناول الطربوش من الراس فيضعه على العقب او بالمكس والصبي يفتح عينيه ولا يصدق ما تقعصان عليه . فكيف وقد كرج القزم العفريت على الدفتر وكأنه يمشي على لسانه .

كان ذلك اول عهد الصبي باقلام الحبر . ولما دعاه المعلم مع من تحلق من اترابه حول المنبر الى مشاهدة « الكونكلان » عن كذب ، وقام لهم بعملية تعبئة بالحبر ، ومتاوربات لجريه على الورق - يخط الحروف من زرقة البحر في توهجها تحت الشمس ، لا كالغزارة غمسا في دواة حبرها زفت وفي المواسم عصير كبوش التوت - ثم بكيفية تعليقه يجيب القباء ، على ان تبهز شرابته الناظرين وتفقأ حصرما في اعين الحاسدين ، لما رأى الصبي ذلك تولع قلبه . ومن المساء ارتدى في حضن ابيه : - متى يا ابي تنزل الى بيروت ؟ ضارعا اليه لا يريد صباحية العيد في راس السنة مشمعا بقبعة كما سبق وطلب منه ، ولا كرنيطة كما تشهى عليه مرارا ، بل قلم الحبر اياه ابا الذهب واخا البحر . وظل اياما يلاحقه ويذكره ويعلم في ليايه ، حتى كان

غدا اصير كتابا يا لسعد غدي  
محبة سمحة الاكتاف تطعمني  
تجربتي الادبية ؟  
قصة عمر .

بل قصة عمرين في واحد .  
سيرتي وسيرة صاحبي الذي ولد معي ، وعاش وصلب ، ثم قام  
من بين الاموات .

في اساطير الجاهلية مخلوقان عجيبان لا يذكر احدهما الا بذكر  
الآخر ، هما شق وسطيح . كان شق بعين واحدة ويد واحدة ورجل  
واحدة ، وكان سطيح بلا عظام يندرج كالثوب وينتفخ كالجراب .

على ان في الطبيعة احيانا ما هو اغرب من الخيال . من ذلك  
الظاهرة التي شغلت الناس في القرن التاسع عشر وذهبت في العالم  
مثلا : الاخوان السياميان . مسح مزدوج ، توأمان ولدا مرتبطين  
بخاصريهما ، وعاشا اربعا وستين سنة طافا خلالها بعواصم اوربا  
وامريكا في سرك فرجة لمن يتفرج ، وتزوجا وانجبا اولادا ، واعتزلا  
اخيرا في مزرعة من مزارع قصب السكر في كاليفورنيا حيث وافاهما  
القدر المحتوم في افطع مأساة عرفها تاريخ الموت .

نسيت اسمي التوامين المتلاصقين . هما على اي حال من  
الاسماء الاعجمية الاعجية التي لا تدور بسهولة على لساننا العربي .  
فأي باس ان نستعير لهما اسمي شق وسطيح ؟ واسطورتنا تعيننا  
على ذلك احسن العون من ناحية الازدواج بالذات ، فنحن لا نعرف  
شقا الا بسطيح ولا نعثر على اسم سطيح الا مقرونا باسم شق . فضلا  
عما ينبغي ان يفرينا من اوصافهما الفريدة . كيف لا ومن احدتكم  
عنه الليلة واحد في اثنين ، وان كان الاول سيسنائر دون صاحبه  
بمعظم الحديث . اجل ، لان شقا هو الذي يمينا . وما عاتبته  
عين واحدة اذا كان يرى بها ما لا تراه العين ، او رجل واحدة اذا  
حلق بها على القمم ، ولا يد واحدة اذا كانت تكمش اشعة الفجر .

\*\*\*

في روايتي « الرغيث » ، في احد فصول المجاعة التي ضربت  
لبنان ابان الحرب العالمية الاولى - وكانت جثث الموتى لا تجد من اهلهم  
في الغالب من يتولى دفنها فعميت البلديات موكلين بجمعها على  
محامل وطرحها في حفر عامة - كان طام يمشي في طريق الضيعة

« المشرق » .

ابتداء من ذلك أتوقت تم الاتفاق بين الاثنين على سمت ارتضياه، فالتحقت بجريدة « النداء » المنشأها كاظم كاشم حيث شرعت بخرطشة القصص ، كل يوم واحدة ، تناول موضوعها من الشارع ، من المقهى ، من البيت ، ومن كل ما هب ودب بين الأرض والسماء ، وأوقعها بالحرفين من اسمي ت.ع. مرة كانت قصتي صلاة ، ومرة ، على ما يظهر ، كفرا والحادا - في فتاة وظيفتها جمع الزبالة ، ومن جماعة ترى في الحب شيئا من ذلك مقلوفا بوجه السماء . فما كاد عند الجريدة يظهر حتى زحفت أنى دارها جموع هائجة على رأسها رجال دين اجلاء - : اين هو هذا التبع .

- يا عادل ، يا تقي الدين ، يا عماد ، عليك الاعتماد هرب فلانا من الدرب !

وهرب ت.ع. طرد - اكد كاظم لوفد المتظاهرين - ولكنه لم يخرج من باب الا ليدخل من باب آخر ويواصل الكتابة مذ ذاك بتوقيع « حماد » .

ومن « النداء » الى « البيروق » الى ( الراصد ) الى ( البرق ) - حيث نقتب للاختل الصغير عن قصائده المبعثرة في عشرات الصحف ونقلتها بخط يدي على دفتر هو الذي اعتمده لدى نشر ديوانه - فالى « الايام » و « الشعب » و ( القبس ) في دمشق ثم اعود الى بيروت فاستقر في « النهار » ومن بعدها في « الجديد » مجلتي الاسبوعية . قبل ان اترك ضفاف بردى انحنى لاقطف زهرة ، فؤاد الشايب . اخ اخر لي لم تلده امي . يا ما كتبتنا معا ونكتنا . ثم تنادينا الى تأسيس « ندوة الامون » وتماهدنا : قصة مني وقصة منه . ولكنه كان رحمه الله فيلسوف كسل فلم تصدر له الا مجموعة « تاريخ جرح » - كافية على اي حال لتدل عليه .

من حق ابناء هذا الجيل ان يتساءلوا : وما علاقة العمل الصحفي بالتجربة الادبية ؟ - الواقع ان الصحافة من حيث هي كانت في ذلك الوقت عبارة عن مشاريع ادبية . الكاتب ، وحتى الشاعر ، يصدر جريدة او مجلة ، للتعبير عن نفسه ( بشارة الخوري الاختل الصغير في « البرق » . واحد من كثيرين ) او يشترك في التحرير عند زميل له . ولعل جبران تويني في « الاحرار » ثم في ( النهار ) هو اول من فضل الادب - على ولوعه به - عن الصحافة فوجهها توجيه الرائد لا في طريق مهمتها فحسب بل في طريق صيرورتها الى ما صارت اليه ، اعني الصناعة الاعلامية التي اخذت حجم طموحه على يد نجله عثمان .

في « النهار » ، وقد عملت فيها منذ العدد الاول قرابة عشر سنين ، قضيت انصر مواسم الشباب وازخرها . وبصفتي سكرتير التحرير كنت موكلا بعصبة بين محررين ومخبرين ومراسلين ، بضعة عشر من اخوان الطليعة اذكر منهم : لويس الحاج - نبطوية - ابوالناوين الخبيثة ، كامل مروة ابو المروءات والشرارات في التحرير والتحبير ، حنا غصن ابو المشاكل والمسالك الوعرة . . وكنت بتلك الصفتوراء كل مقال وخبر وكل عنوان وصورة ، وخصوصا وراء الكلمة الجميلة ، هي الاكبر . فاكتب الكثير من الاخبار كتابة جديدة ، واعني بالجرائم فاقدمها في قصص مثيرة ، الى « نهاريات » لي اكتب فيها كل يوم نقداً ادبية بتوقيع حماد - اياه - وقد اخذها عني بعد ثلث قرن رشدي معلوف على طريقته - وهي النقدات التي ضمنت نخبة منها كتابي « غبار الايام » مضيغا اليها بعض ما نشرته في الحياة بامضاء « عبده » .

اما « الجديد » فكانت تحقيقا لحلم - حلم كل كاتب - اقلب فيها قلبي بين السياسة والادب على هواي مع فريق من الكتاب المختصين . وقد احتلت « الجديد » مدى نيف وخمسة سنين مكانها في الصف

العيد الذي كان ماتما لذلك الحلم . كان ثمن « الكونكلان » ، كما هتف ابي بامي وهي تعاتبه على كسر خاطر الصبي ، ليرة عثمانية . وقد فضل ان يشتري بها للاولاد هدايا تنفعهم ، كان نصيب الصبي منها حذاء لماعا - صحيح ان سطيحا اضججه تلك الليلة الى جانبه في الفراش ، ولكن شقا نامها اشقى ليلة في حياته ، وظل اللحاف يعلو ويهبط بجهشه حتى الفجر . . .

من قبو سيدة المعونات في ساقية المسك بعد سندنائة مار يوسف بحرصاف . الى مدرسة الاباء اليسوعيين في بكفيا فالى كلية القديس يوسف في بيروت ، ظل الصبي فاليافع لا يحلم الا بالاقلام ، ولا يعاشر الا الكتب ، ولا يريد ان يكون الا كاتباً .

ومع ذلك لست ادري كيف انتصب سطيح ذات يوم في وسط البيت ونفخ من جوفه بوجه شق ، وما زال حتى اقعنه بفتح متجر في بلدته الجبلية ، بابيين على الطريق عربضين ، وآرمة فوقهما مترين طولاً ، كتب عليها بالخط الفارسي التجميل - حصة شق الوحيدة في راس المال - . فلان الفلاني : ترابه وحديد وخشب لوازم البناء . ولكن ، بينما كان سطيح في تلك الفترة ، وقد استقرت ستة اشهر فيما اذكر ، مشغولاً باتربته وحدائده واخشابه كان شق ينصرف الى الكتابة في مجلة « العرائس » لصاحبها عبدالله حشيمة - وكان يصدرها في بكفيا ويطبعا في بيت شباب - فيرافقه مشيا على الاقدام نزولا وطلوعا بين الصيغتين ، ويوافيه في اخر الاسبوع فيقضي الليالي في مساعده على طي المجلة وكتابة عناوين المشتركين . وربما نظم الشعر فارسله الى « البرق » لصاحبها بشارة الخوري الاختل الصغير ثم لم يلبث ان تخطى حدود الضيعة والبلاد فجازف بمقال اول الى « السياسة الاسبوعية » في القاهرة لصاحبها محمد حسين هيكل فتنشره له في مكان بارز ، فيتبعه بثان وثالث . . حتى كان ما لم يكن منه يد . افلس المتجر . فدعا شق بسطيح ان يصب على دفاتر حساباته بينما كان هو يتسلق السلم الى الارمة ويحطها الى الأرض ، فحملها سطيح الى قبو البيت حيث لا تزال ، وحمل شق اسمه بعد ان نفخ القبار عنه مجردا سطيحا وراه ونزل الى الساحة في بيروت .

\*\*\*

في يوم البركة من ١٩٢٩ تناولت اول اجر على مقال اكتبه . كان ذلك في مجلة « البيان » لصاحبها بطرس البستاني في سلق « رسول العرى » لؤلؤه فؤاد حبيش بعطفة على قلة حياته . ليرة . ليرة لبنانية سورية واحدة ، وكانت وقتذاك تحمل شرف القطرين الشقيين . تاريخ في حياتي وفي حياة اصحاب الاقلام من جبلي . ولكن اذا كان شق لا ينسى سروره واعتزازه فانه لا ينسى شماته سطيح به لما جاء اول الشهر وحن دفع ايجار الغرفة .

على ان صاحبي لم يعتم ان اخذ بثاره . فقد دعنتني في الشهر التالي جمعية مار مارون الى القاء محاضرة ، فقبلت شرط ان اعين الموضوع ، الزجل او الشعر الصامي وقبلت الجمعية على مفض استهانة على الارجح بهذا الموضوع . وقبيل الموعد المضروب لبس صاحبي احسن ثيابه وتأبط اوراقه وهم بالخروج من غرفته ، فحانت منه على العتبة التفتاة الى قميمه فجمد . كان صباطه للصيف ، ابيض والنديا في عز الشتاء ، وليس له سواه . فعاد من الباب ونادى : - سطيح . نخ واصبغ لي صباطي ! فصدع سطيح باهر سيده وصبغ له صباطه بما يوهم بالاسود .

وهكذا استطاع ان يدخل بين الناس مرفوع الراس . .

وان يجلس بعد محاضراته جلوس امير المؤمنين وقد وقف بين يديه امير الزجل شحورر الوادي يرتجل في مدحه فصيده من اروع اذجاله ، ثم يتبعه الحكيم امين الجميل بخطبة في الفصحى ، ثم يتقدم فؤاد افرايم البستاني الى تلميذه القديم فيأخذ منه المحاضرة وينشرها في

الجامعة الاميركية اذنت فيه مي من روايتها ما ابكى وادهش وجئت الكثيرين .

كان نعيمه والريحاني من الكهان . ويجمعهما في ذاكرتي رسالتان نقديتان وتعلّق على الرسالتين . لما ظهر « الصبي الاعرج » كتب الي نعيمة : عزيزي توفيق، كانك ما تعلمت الكتابة الا لتكتب القصة . الخ . فامتعض عمر فاخوري لدى قراءته الرسالة في « المكشوف » : علام هذه العزيزي ؟ وما هي حتى اتبعها الريحاني برسالة : عزيزي توفيق ، في انفاسك شيء من تشيخوخ الخ . . فطفح الكيل لدى عمر . عزيزي من هنا وعزيزي من هناك . وهل يحتاج « الصبي الاعرج » ، ولو صيّا ولو اعرج الى من يمك به من الميلين ويتشتشه ليدخل دنيا ادبنا العربي ؟ وشمر عمر عن ساعده وكتب من اجل هذه العزيزي ما يظل من اقدع ما كتبه ابو الطرفاء في الناس والاشياء .  
اعمل دعاية لنفسي ؟

عفوكم ، سادتي، ولم لا ؟ لقد كانت لنا في « المكشوف » التي ارحت مرحلة ادبية في الثلاثينيات خطة رسمناها عن سابق تصور وتصميم ، تلك كانت الصبيح ما امكننا الصبيح . المديح في موضعه مليح ، فان لم يكن فالظمن والتجريح . المهم ان نوظف القارئ من سباته . وما كان اشد حاجته الى من يضرب على راسه هذا الضرب ، وما اخاله الا باحثا عن الضاربين حتى اليوم .

اكثر من هذا . انا قارئ نفسي قبل القارئين . ربما كتبت القصة او نظمت البيتين من الشعر في ساعة او ساعات . وربما قتلت الايام واحييت الليالي على فقرة او قافية - « الرغيف » كتبتها اربع مرات ، و« طواحين بيروت » ست مرات . فاذا ارتحت في النهاية الى صنيعي حملته في الناس مناديا عليه ، والا « شريتها وحدي » على دين ابي نواس ، ورحت اتلو على نفسي واطرب - الفنان صاحب رسالة ، صاحب بضاعة على الاقل ، اذا لم يكن اول المؤمنين برسائلته او بضاعته فكيف يؤمن الآخرون ؟  
ايها السادة ،

اذا استطاع قلم ان يصف لنا حياة الاخوين السياميين - وقد كانت لكل منهما طباعه وحاجاته ، وافراحه واحزانه ، واشواقه ومآربه ، وبكلمة شخصيته - اذا استطاع ان يصور لنا تلك الحياة التي كانت جهنما من صراع لا يعرف الراحة - وهما مع ذلك لا بد لهما من السلام لانهما لا ينسيان ولا يمكن ان ينسيا انهما انسان في واحد او بالعكس - فاي قلم يستطيع ان يحكي لنا مأساة موتهما ؟

اجل ، لان مأساة الماسي كان مكتوبا لها ان تقع . فذات يوم استفاق احد الاخوين على اخيه ميتا ، فنظير الى الجثة العالقة به، الى نصفه الذي يشده الى القبر ، وصرح صرخة لم تهتز السماء، يقينا . على مثلها قط . وقد دامت فترة الهول هذه على ما يقول الشهود ساعتين . اقول « دامت » لان تينك الساعتين وسعتا الدهر كله .

كان ذلك في كاليفورنيا في السنة 1874 في مزرعة من مزارع قصب السكر - وفي بيروت في السنة 1946 في بناية وقف الموارنة في ساحة البرلمان حيث كان مكتب « الجديد » .

لقد احدثت الحرب العالمية الثانية في لبنان ، كما احدثت في كثير من البلدان ، زلزالا قلب فيه الاوضاع راسا على عقب . واذا كانت « الجديد » قد ادت - مجلة وجريدة - قسطها من رسالة الصحافة الوطنية لذلك العهد على الصميين السياسيين والثقافي ، فان تجهيزاتها المادية لم تكن تهلها لمواجهة ذلك الانقلاب ، خصوصا بعد مفامرتها يومية . . وينظر صاحبي حواله فيهوله ما صارت اليه الكثرة من الاقلام - المز لسامير الاحذية . وما صارت اليه

الاول من المجلات الاسبوعية في لبنان ، حتى كانت السنة 1945 فجاء من يعرض علي طريشتها او برنطتها بشركة تتولاها ، يكون اعضاءها اصحاب « لوجور » وانا ، على ان ابقى رئيسا للتحريير . وعهد الى الرئيس شارل حلو ، رئيس تحرير « لوجور » لذلك العهد ، بكتابة عقد الشركة ، فصاغه بقلمه الانيق على عشر صفحات قصفا ذهبيا اذا كنت احفظ لاقامتي فيه عن صحبة المفكر الكبير ميشال شيجا وادبه احسن الذكريات ، فان الحرية لم تلبث ان حملتني على هجره بعد ستة اشهر والانطلاق في مفامرة على حسابي هي تحويل « الجديد » الى جريسة يومية .

واخيرا - « الصبي الاعرج » .

هذه كانت اللرد على تحد جاني من شريكة حياتي - اول قارئتي واقسى ناقدتي - كانت عروسا ، وكانت تحب الكتب وتضع الكتاب في اعلى المراتب - ظني انها غيرت رأيها بعد ان عاشت واحدا منهم وعرفت ما هم - وكنت لا اجدتها في اوقات الفراغ الا منكبة على رواية او قصة . ففتفت :

- تريدان ان اعملك قصة ؟

وبادرت مكتبي وفي مدى ساعتين او ثلاث خلقت الصبي ، كسرت له رجله ، حملته صندوقة الكاتو ، عشت مأساته حتى خرج منها ، ولم اتركه الا وقد استقامت رجله العرجاء باستقامة عزمه وظال خيالها النجوم .

لم تظهر « الصبي الاعرج » مع اخواتها في الكتاب الحامل هذا الاسم الا في 1936 حلقة اولى من سلسلة منشورات « المكشوف » .

كانت « المكشوف » لذلك العهد خلية في مكتبها القديم « على السور » ، مفارة ، « انترسول » من بناية عالية ، كما تكون خلايا الدبابير . حتى ان الشيخ خليل تقي الدين الذي لم يحطها واطئة في حياته كان مضطرا لدى دخوله الباب ان يحيي هامته ، وما يكاد حتى يصيح الشيخ الآخر فؤاد حبش :

- الاركيلة يا ولد ؟

وعلى قرقر اركيلة الشيخ خليل وتسايح الشيخ فؤاد القادحة اسقف يتعاقب : لباس ابو شبكة بعصاه السوداء يهش بها على قوافيه ويطارد « افاعي فردوسه » . عمر فاخوري باخر جرائد سباق الخيل يدفع انفه في اذنانها وبريق عينيه الى الكتب حواليه . ريف خوري يرفع اصبعه بالمعارضة ويهدر بالاحتجاج . صلاح لبكي يقرع قافاته القروية العتيقة على سكرة هي احدث قصائده . بطرس البستاني يضع وقاره ملء كرسى رفاصه الفيروزبادي ، ويل لمن اخطا او لحن . يوسف غصوب بشفته السفلى مقلوبة لانه لم يعثر على من يلاعبه « المحبوسة » في مقهى النجار فساد الى « قصصه المهجور » . وكثيرا ما يهبط علينا مارون عبود فنكتمل الجوقة على نشوق يقذفه في منخاريه ، على عطسات له ، لها عصف ودوي تطيح بجمر الاركيلة فتقوم القيامة - ويغرّد الادب وتحلولى الحياة .

في هذا الجو صدرت لي بعد « الصبي الاعرج » مجموعة « قميص الصوف » ، « فريادة « الرغيف » - مجموعة ( العذارى ) ترجع الى وقت لاحق الى 1944 - وكان بعضنا يقرأ في الغالب لبعض قبل النشر . « الرغيف » مثلا تلوت فصولها تباعا على فؤاد حبش ، وقرأها مخطوطة عمر فاخوري وميخائيل نعيمة .

ميخائيل نعيمة كان لا يطل علينا من شخروبه الا في النادر . وكذلك امين الريحاني من فريكته الا ابان الحملة التي شنّها الريحاني - وعاوناه بها في « المكشوف » وفي « النهار » - على الذين اتهموا مي اديبة العرب بالجنون ، وقد اسفرت الحملة عن اجبارهم على اطلاق حريتها وعودتها الى الناس في مهرجان اقيم لها في وست هول

الكتب - العز لبلات الخام تحل القصور ، والاكواخ لتردعها الى مقام القصور . وما صارت اليه كل القيم التي يؤمن بها - العز ان عرف ان يسوق مع السوق .

- لو ايقبت ، يا شق يا شقي ، على اتربتك وحداندك واخشابك! وهكذا تخليت عن (( الجديد )) ، كسرت فلمي ورميت اوراقي من الشباك ، وكتسبي طعاما لليران وما غلا منها فللثوران في القبو .

ساعتين اثنتين استغرقت ماساة ماسي الاخوين السياميين ، وامتدت ماساتي الادبية ربع قرن . وفي ١٩٦٠ ، تديدا لاي شك ، وقطعا لاي امل ، حرصت على ان اؤكد ما سبق لي ان قلته في ١٩٥٢ في رسالة الى سهيل ادريس نشرتها (( الاداب )) في حينها جوابا على دعوته اياي الى استئناف الكتابة ، فتوليت هذه المرة اذاعة النعي بعنوانه على صفحات (( الانوار )) فقلت بالعرف : ما زلت تسألون عن المرحوم ؟ ( كذا ) لقد مات فلان الكاتب من زمان .

هل انا في حاجة الى القول انني كنت جادا في ذلك ، مخلصا بيني وبين نفسي الاخلاص كله ؟ والا فاذا كان صاحبي حيا يرزق فما باله لا يعود الى الساحة ويتفضل بما عنده ؟ لا . لا . وقد حان ترك الحداد ونسيان الاحزان .

حتى كان ذلك الصباح المشرق من صيف ١٩٦١ ، في بيتنا الجبلي ، على السطح المعلق بين الارض والسماء . واذا بشق - اياه - يطلع من البيجامه منتصبا بوجه الشمس ويصرخ : - انا ما مت ! انا ما مت !

ويضي من فوره الى قلعه فلا يتركه نهارا ولا ليلا ، اسبوعا كاملا ، حتى نفى يده من (( السائح والترجمان )) .

ومع ان (( السائح والترجمان )) قد نالت جائزة ((اصدقاء الكتاب)) للمسرحية - (( امسرحية هي ؟ )) - وشرف ترجمتها الى اللغسة الفرنسية ، فستظل في نظري صراخا ، انفجارا ، بكل ما في الانفجار بعد طول كبت من عصف ولهب ودخان . ولم تم العودة الواعية ، اذا جازلي ان احكم بنفسي على نفسي ، الا بعد بضع سنين في روايتي الاخيرة (( طواحين بيروت )) ، وقد كتبتها بين ١٩٦٨ و١٩٦٩ وكتبت الي جانبها طائفة من القصص ما تزال مخطوطة ، ومن القصائد بين منظوم ومثثور . وبذلك استأنفت ما انقطعت عنه وعدت الى سمتي . وطاب على الحبر والورق ، من جديد ، طعم الخبز والملح .

لماذا اكتب ؟

كيف اكتب ؟

لمن ؟

من اين اتناول موضوعاتي ؟

ومن هم ابطال قصصي ورواياتي ؟

ما العلاقة بيني وبينهم ؟

وما العلاقة ، اخيرا ، بيني وبين الكلمة ؟

(( سئل الكاتب الفرنسي (( ليونو )) قبيل وفاته : الا تكتب للخلود؟

فضحك الشيخ ملء سنيه وقال : الخلود . الخلود . وما يهمني الخلود وما يهمني الخلود بعد ان اصير ترابا في التراب ؟ انا اكتب لاني اجد لذة في الكتابة )) .

(( حاجة اقرب ما يكون الى اتواصل . ورب كلمات لها في الفم طعم القبلات )) (( المعرفة )) المعرفة بمعناها التوراتي وهل المعرفة في جوهرها الا ازالة الحواجز وهل غايتها الا الاتحاد .

مع كل صنيع فني ، مع كل قصة او رواية او قصيدة حب جديد . الكاتب عائش في حب دائم ، اي في انهيار دائم وعذاب مقيم . وهو معها في مناخ الحب لهاثا وارفا وتحرقا ، على تدلل وتمنع ومخاتلة

(( من رسالتي الى سهيل ادريس في (( الاداب )) ١٩٥٢ .

ومداورة . وما دام وراءها فهي صالته المشووه . فاذا وصل اليها - اذا وصلها - فاشواقه الى اخرى . امانته ليست توحدة . امانته لحيه ، للفن . ودأبه مفامرة وشك مفامرة ، سمي حيث لا يصرف الهوادة وراء تلك المعركة - اياها - في وسط هذا الجهول الاكبر ، الكون ، الذي يوميء اليه بالف يد ، ويفهمه بالفعين . اكثر من ذلك . انا اكتب اذن انسا موجود . وراء اللذة والالم اثبات للوجود وتحذ له وتجاوز .

في القصة والرواية احيانا كثيرة ، وفي القصيدة دائما ، من العزلة انطلق . من شعوري بالعدم . والعزلة يجب ان تستحوذ علي ، ان تبلغ غايتها في الاخذ بخناقني - وقد يتفق لي ذلك في المحافل الحافلة ، في المقاهي الصاخبة ، في السهرات الراضة ، على اعترافي بانني لم احسن الرقص عمري الا مع الكلهسات - على العزلة ان تنتهي بي الى الازمة الحادة ، الى الحد الفاصل بين عالمي الواقع والخيال ، ان تصعني في تلك المنطقة التي هي اشبه ما يكون بالفجر قبيل الخليقة .

لمن اكتب ؟

(( لنفسي )) يقول سان جون برس محدثا عن الشعر .

مهلا ، يا سيدي مهلا . طبعنا تكتب لنفسك . ولكنك في عزلك - عزلة الفنان - لست وحدك . لست ابدا وحدك .

لا بد من الناس لا بد ، وهم في ثيابك . لا بد من الاخر . وما الكلمة بكلمة اذا لم تقع في اذن او تقع عليها عين . فانا اذن لصيق القارئ . الكاتب والقارئ جزآن من كل . في تقائهما تم رسالة الكتابة . وكذلك رسالة كل فن .

انها رسالة عفوية . مطلقة . حرة من كل قيد . انسا لا اؤمن بالقلم مستسا مصوبا الى هدف ، ولا حمارا محملا الى طاحون . والادب الملتزم بغير رسالته المجردة مكتوب آه الزوال . موضوعاتي ؟

تنفجر من داخلي . مما هو فيّ وأنا فيه . بيتي ، قريتي ، مدينتي ، مجنمي ، كوني . من تلقائها تنفجر . نائرة ؟ نائرة كلها على شيء . على اي شيء ما دامت نائرة على نفسي ، على الانسان . بمعنى انها كلها تشد الى التفسير .

وسيلة الفن الى التفسير هي المهمة : الجمال . ومن هنا كان شرف الفنانين على الثوار وما يتوسلون به من وسائل . التاليف - كما يقول العرب - التاليف بين الاشئان والاضداد لتصير كلا . النظم - كما يقولون - نظم النفاس والاشعة في سلك . واذا كان من البديهييات ان يكون الكاتب اصلا ذا موهبة فالامر من قبل ومن بعد - كما يقول العرب اياهم - صناعة . بطل الوحي بعد انبياء . يبقى ، والحمد لله ، وحي القلم ، اي ولادة كلمة من كلمة . والكلمات تحت القلم نساء يلدن كل عجيبة . ابطالي ؟

هم كذلك حوالي ومني وفي . قد ينزع الفضوليون طرف ثوب لهم ويدلون باصبعهم قائلين : اشخاص حقيقيون ابدل المؤلف بعض ملامحهم تمويها وتضليلا . وقد يهتف اخرون : بل هم خرافيون لا يمكن هذا او ذلك ان يكون في الواقع . كلاهما على خطأ وكلاهما على حق . من اين اخذ ابطالي الا من الواقع ؟ من حجار الطريق الذي انا سالكه ، من اعشابه من وجوه الناس الذين امر بهم او يمرون بي . واي قيمة لهم اذا لم يكونوا منه ؟ ولكنهم ليسوا اياهم الا بالاحجام التي اعطيهم اياها ، والابعاد التي اطلقهم فيها - الفن غير الواقع ، انه الواقع في الخيال - من لحم ودم يظنون - شرطهم الاول والاخير - يتحركون فيحركون الهواء لا الافكار ، ويعيشون معك بعد القراءة - طول العمر - يقول انسي الحاج . بماذا ؟ لا بالاحداث التي يزجهم فيها الكاتب فقط بل بما يضعه خصوصا في قلوبهم وعلى افواههم من اشواق

واسئلة . بمقدار حجم الاسئلة ، والسائل التي يطرحها الكاتب ، يكون حجمه .

وهم كلهم ، على اختلافهم ، واختلافي عنهم ، كلهم انا ولست واحدا منهم . انا الضد وضده مجتمعان . انا « الصبي الاعرج » مقهورا وعمه « ابراهيم » جلادا . وكذلك شاتي مع سائر ابطالي في سائر كتبي ، قاتلا ومقتولا . بكل شر الانسان الذي في ارفع السكين واطعن ، وبكل عذابه انخبط في دم البريد . وكثيرا ما بكيت حتا .. بمن تأثرت ؟

بجدتي قبل اي احد . بحكايات جدتي حول الموقد في الشتاء ، وقد عشنا طفولتنا على تلك الحكايات لا على التلفزيون . ينبغي ان اقول تصحيحا . جدي لامي رحمه الله ، وكانت لديه من حكايات الابن الشاطر والست بدور وخاتم سليمان « نبيك عبدك بين يديك » طائفة عمرت عالم خيالي مذ ذاك وترددت اصداؤها لها في بعض ما كتبت ومنها قصة « جدي وحكايته » . ثم كان تأثري بابي وكان سيدا من سادة الحديث اذا جلس يقص خبرا او يروي نادرة ، يوزع الاصواء والانوار توزيع العارف ويوقع الكلمات توقيع المسك بالانفاس . ثم ، ثم باسمناذنا الاكبر ابي الفرج الاصفهاني في « اغانيه » الذي كنت التهم قصصه وانا تلميذ التهام اترابي لقطع الكاتو ، والذي يظل ، بالرغم مما يتهم به الادب العربي من جهة للقصة ، عملاقا من عمالقتها تحت كل سماء وما ضر القصة ان لم تكن على قلمه غاية في ذاتها . فقد استطاع ، كما لم تستطع الا القلة ، ان يعطيها ارفع اوصافها في السياق والحوار على حد سواء .

ثم كان تأثري بالغا باعضاء « الرابطة القلمية » وكانت في عزاها - وذلك على يد راهب فاضل يتعبد للادب بعدد الله هو الاب روفائيل نخله اليسوعي . وكان ينظم الشعر في « سانت تيريز دي لافان جيرو » ويتنوق جبران ، ونعيمه ، وابو ماضي ، ويدلني على مواضع الجمال في آثارهم وما اتوا به من جديد على ادب كان قبلهم رهن التقليد . وتربطني باحدهم ، ميخائيل نعيمة ، صداقة ترجع الى 1922 اذ زرته فور عودته من نيويورك وكتبت عنه سلسلة فصول دعوته فيها ب « ناك الشخروب » . واذا كان قد علق به مني لقب اطلقته عليه فمن الحق ان اشهد انه ترك في منذ الصغر ما يشبه النقش في الحجر . اما الكتاب الكبار في اللغات الاجنبية فلم انشط الى قراءتهم الا بعد ان قطعت مراحل في طريقي . واعجبت وما ازال بالروس منهم في القصة والرواية على السواء .

ان القصة - والرواية - بمفهومها في الاداب العالمية ، قد انتهت هذه الايام الى ان تخضع كل نوع ، حتى ليتمكن القول انها صارت ، على يد الكثيرين نوعا جديدا لا يمت الى مفهومها القديم الا باسباب ضعيفة جدا . نوع جديد هو اللانوع ، وشيء جديد هو اللاشيء وكل شيء . ما المانع ؟ وهل المانع بالامكان ؟ الادب - الفن - تجربة لا تنقطع . وما تسفر عنه هذه التجارب متروك الى التاريخ . ولكن الحمد لله ان في بيت ابي امكنة كثيرة ، وما يزال فيها امكنة كثيرة للذين لا يزالون يكتبون على دين دستوبوفسكي وستاندال ولاورانس او يحركون الناس والاشياء بسحر الاصفهاني او يدفنون القلوب بما كانت تتدفقا به على حكايات الموقد في شتاء الطفولات .

\*\*\*

من القصة - والرواية - الى الشعر خطوة . بل ان في كل قصة وكل رواية شعرا . ليس من كاتب يستحق هذا الاسم ما لم يكن شاعرا . امن الضروري ان يقرض الشعر ؟ انا من الذين مارسوه ، على ايثاري المنظوم منه على الحر من وزن وقافية .

ياتي كما ياتي . بالوزن والقافية ياتي فارضا وقاره . ليست هذه الطفوس من جوهر الشعر ؟ هبها من غير جوهره - وتاريخ الشعر لدى الامم كلها يشبه العكس - فهي على كل حال جدرة باسمه القدوس . ولكن ينبغي التسليم بان نطاق الشعر قد ضاق جدا . بوزن وقافية

كان او كان حرا . مع هذه المفارقة العجيبة : عند الشعراء في صف واعد القراء في هبوط . والهوة بين الفريقين في اتساع الشاعسر الانكليزي سبندر لدى زيارته لبنان قبل بضعة عشر عاما قال لي : الشعراء ؟ جميعا سرية يتخاطبون فيما بينهم من صوب الى صوب في العالم ، خلال العالم فوق العالم . ابن نحن من حلم زميلسه الفرنسي موتريامون الذي كان يريد الشعر - من الجميع وللجميع ؟ ما اشبه القصيدة ب « الشجرة الوحيدة » :

يتيمة قفر اي رحم رمت بها سفاحا على الرمضاء من قاحل القفر تردت قميص الليل حتى اذا نضت ترامت تلاقي ظلها واحد العمر ليس للقصيدة الا هذه الصحراء : صفحتها البيضاء في كتاب ، تلقي عليها ظلها ، ومن جهاتها الاربع الفراغ بلا حدود . من استطاع ، من اهتدى فهنا واحته وملجأه . والا فهي مرتمية على ظلها السى ما شاء الله .

\*\*\*

وبعد ، ليس بالهين ان يكشف الكاتب ، واي فنان ، عن اسراره ومخبات روحه للناس . ليس بالهين ان يعرضها عليهم - تماما كما عرض الاخوان السياميان شوهتهما على العالم - وان يضع اصابعهم عليها ، وان يسممهم انات تجرح ليله وفهقاته يضرب بها حيطان نهاره ، وان يقوم لهم ، معلقا بين الارض والسماء ، وهم على مقاعدهم الوثيرة ، ببهلوانيات بناء عاله . ولكن عزاءه عن ذلك بل جزاءه العظيم انه في تعرية نفسه انما يعري نفوسهم ، وفي مناحاته واغانيه انما ينتحب في ماتهم ويغني في - اعراسهم ، والعالم الذي يئنه بالكلمات مفتوحة ابوابه للجميع .

كلمات ، يا هملت ، كلمات . كلمات . « بيني وبين بعضها - يقول رهزي رعد في « طواحين بيروت » - عقود كنتك التي هي مسجلة عند كاتب العدل ، ولكن اكثرها تروح وتجزء هكذا . مقتسبة ؟ متطفلة ؟ المهم اني لا اطيق العيش بونها . ومثل جابر الذي يسالك ، ياست روز ، عن نساء جديدة انا اسمي دائما وراء كلمات جديدة . اجل الكلمات بنات ، وانا افضل الابتكار منها حتى في كلامي عن المومات .» ثم يهتف : « تسمية احبت كلماتي . احبنتي انا بالفظ لان كلماتي ليست انا . ليست انا الذي يدرج بين الناس على كل حال .

تقولني في الوصل ما لست قائلا واسمع منها ما يحيي ذاتي اصنق ما تملي علي فهل تسري تصدق ما املي انا كلماتي (X) توفيق يوسف عواد

(X) محاضرة القاها الكاتب بدعوة من اتحاد الكتاب اللبنانيين مساء 14 شباط في قاعة وزارة التربية ، بناية الشرتوني ببيروت .

## مكتبة انطوان

( فرع شارع الامير بشير )

تقدم للطلاب

جميع الكتب المدرسية

العربية والفرنسية